JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م /١٤٤٨هـ
العدد السادس والأربعون
(١٧)- (٣٤)

المذهب الحسي ودوره في بناء نظرية المعرفة عند كوندياك

م.م الاء حسين صابر
جامعة واسط/ كلية الآداب/ قسم الفلسفة
alaa106@uowasit.edu.iq

المستخلص:

يتناول البحث دراسة المذهب الحسي عند كوندياك والكشف عن الدور الذي يؤديه في تأسيس نظريته في المعرفة الحسية ويكمن ذلك من خلال التساؤل عن أصل المعرفة الإنسانية والمصدر الأساسي لها انطلاقًا في البحث عن الأسس الفلسفية للنزعة الحسية التي تجعل من الاحساس المنبع الأول لجميع الأفكار والعمليات العقلية، كذلك يبين البحث الطريقة التي تتولد بها الأفكار والملكات الذهنية عبر التدرج الحأصل في الخبرة الحسية مستعينا بتجربة التمثال بوصفه أنموذجاً لتفسير الوعي والمعرفة الإنسانية، فضلا عن بيان دور اللغة في صياغة المعاني و إبراز النشاط العقلي وتطوير العمليات الذهنية وتركيزه على الإحساس بوصفه المكانة المحورية والمصدر الأول لجميع المعارف ويكشف لنا مذهبه الستار وراء واجهة الاحساسات ببحث المعرفة المستمد من التحول الميتافيزيقي الذي يجمع بين الحسي والعقلي ، هذه النظرة جعلت من كوندياك من أهم ممثلي النزعة الحسية الفرنسية في الفلسفة الحديثة.

الكلمات المفتاحية: المذهب الحسي، التمثال، اللغة

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

The Empiricist School and Its Role in Shaping Condillac's Epistemology Theory

Asst. Lecturer: Alaa Hussein Saber
University of Wasit / College of Arts / Department of Philosophy

alaa106@uowasit.edu.iq

Abstract:

This research examines Condillac's empiricism and its role in establishing his theory of sensory knowledge. It begins by questioning the origin and primary source of human knowledge, exploring the philosophical foundations of empiricism, which posits sensation as the primary source of all ideas and mental processes. The research also demonstrates how ideas and mental faculties are generated through the gradual progression of sensory experience, using the statue as a model for interpreting human consciousness and knowledge. Furthermore, it elucidates the role of language in formulating meanings, highlighting mental activity, and developing mental processes. Condillac emphasizes sensation as the central and primary source of all knowledge, revealing the underlying philosophy of sensory experience through a metaphysical transformation that unites the sensory and the intellectual. This perspective has established Condillac as one of the most important representatives of French empiricism in modern philosophy.

Keywords: Sensationalism, Statue, Language.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

المقدمة:

تعد نظرية المعرفة من أهم القضايا التي شغلت تاريخ الفكر الفلسفي والتي جعلت اهتمام الفلاسفة يكمن في البحث عن حدود المعرفة الإنسانية وآلية تكوينها، وفي هذا المنطلق برز المذهب الحسي بوصفه من ابرز المذاهب الفلسفية في تاريخ الفلسفة، وقد سار ممثلي هذا الاتجاه في رد المعرفة إلى الإحساس ويعتبر الأساس الذي تنبثق منه مختلف القوى والعمليات العقلية.

ويعد الفيلسوف الفرنسي إيتين بونو دو كونديلاك من أشهر فلاسفة هذا الاتجاه الذي يعد مذهبه خروجاً عن القاعدة الفكرية المتعارف عليها في تاريخ الفكر الفرنسي الذي يعرف بتقديسه للنظر والتأمل وتقديمه للعقل على الحواس في المعرفة الإنسانية على العكس مما جاء به كونديلاك متأثراً في ذلك بتجريبية جون لوك بل ذهب في ذلك إلى اقصى حد ممكن فقد سار على نهج الفلاسفة التجريبين الإنكليز متجهاً في ذلك إلى الغاء الفكر وغمر فلسفته في الحواس بالاستناد إلى التحليل الدقيق في تطوير الخبرة الحسية ودورها في تكوين الفكر الإنساني مما جعله واحداً من الفلاسفة اللذين اسهموا في تأسيس واثراء المذهب الحسي في القرن الثامن عشر.

مشكلة البحث: وتتمثل مشكلة البحث حول مفهوم المذهب الحسي والتساؤل الذي تدور حوله فلسفة كونديلاك وهو كيف أسهم المذهب الحسي في بناء نظريته في المعرفة وإلى أي مدى استطاع ان يفسر نشأة الأفكار والعمليات العقلية من الإحساس وحده؟ ومن الصعوبات التي واجهت هذا البحث هو قلة المصادر العربية المتخصصة بفلسفة كونديلاك، مما تطلب الرجوع إلى مصادره الأصلية وترجمتها وأصبحت الأساس الذي يرتكز عليه البحث.

أهداف البحث: هناك مجموعة من الأهداف التي يسعى البحث إلى تحقيقها ومن أهمها بيان مفهوم المذهب الحسي كما ورد في المعاجم والموسوعات العربية، وكذلك اهمية المرتكزات الفلسفية التي ساهمت في تطوير المذهب الحسي وبيان مكانته عند كونديلاك وتحليل القوى العقلية من الخبرة الحسية فضلاً عن بيان دور اللغة في تنظيم الأفكار التي تساهم في بناء نظرية المعرفة.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م /١٤٤٨هـ

منهج البحث: يعتمد البحث على مزيج بين منهجين من المناهج الفلسفية وهو المنهج التحليلي من خلال عرض وتحليل الأسس النظرية للمذهب وتحليل آراءه المتعلقة بالإحساس والمعرفة واللغة، والمنهج الآخر هو المنهج الوصفي من خلال عرض الأفكار الفلسفية للفيلسوف الفرنسي كوندياك كما وردت في مؤلفاته بالإضافة إلى المصادر والدراسات العربية التي تناولها البحث.

المحور الأول: المذهب الحسي عند كوندياك وتأثره بالفيلسوف الإنكليزي جون لوك:

يعد المذهب الحسي هو أحد الاتجاهات الفلسفية التي ترجع أصل المعارف الإنسانية إلى الحواس، فيرى هذا المذهب أن جميع الأفكار والعمليات العقلية تنشأ من الخبرة الحسية مبيناً في ذلك بأن هذا المذهب رفض الأفكار الفطرية التي تكون سابقة على التجربة.

والمقصود بالمذهب الحسي هو " القول بأن جميع معارفنا ناشئة عن الاحساسات وان المعقول هو المحسوس ويعد هذا المذهب صورة من صور المذهب التجريبي" (صليبا، ١٩٩٤، الصفحة ٤٧٠).

ويعد الفيلسوف الفرنسي إتيان بونو دو كوندياك (١٧١٤-١٧٨٠م) هو من ابرز ممثلي النزعة الحسية للفكر الفرنسي في القرن الثامن عشر، فقد تناول مشروعه الفلسفي في الفكر بازدهار النزعة التجريبية ونقد الأفكار الفطرية التي دافع عنها أصحاب النزعة العقلية، وقد أعجب كوندياك بلوك باعتباره أفضل الفلاسفة، لأنه درس عمليات العقل دون الاستناد إلى مسلّمات حول طبيعته الجوهرية، ويعد كتابه الذي نشره " **محاولة في أصل المعارف الإنسانية**" عام ١٧٤٦م هو اول اعماله واهمها على الاطلاق اذ تبنى عليه فلسفته جميعها، والذي بدوره يحمل بصمة التأثر الواضح بتجريبية لوك، ولا يعني ذلك بأنه أعاد تقديم مذهب الفيلسوف الإنكليزي وانما كان على اتفاق مع مبادئ لوك من خلال رد المعاني المركبة إلى معاني بسيطة وان يحدد للمعاني البسيطة أصلا تجريباً (كوبلستون، ٢٠١٠، الصفحة ٥٤).

اما في كتابه "**رسالة في الاحساسات**" الصادر عام ١٧٥٤م فإن الهدف من تأليفه هذا الكتاب هو القول بأننا نعجز عن تذكر حالة الجهل بالأشياء التي كنا عليها عند مجيئنا

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

للحياة لأنها حالة لا تترك اثاراً تدل عليها ولكي نتخطى هذه الحالة ينبغي ان نتزود بالمعرفة (عباس، ١٩٩٦، الصفحة ١٩٥). ومن هذا المنطلق يتقدم كوندياك في اتجاه تجريبي إلى ابعد ما وصل إليه لوك، إذ يبين بأن ليست كل افكارنا مستمدة من الحواس، بل ان جميع قوى العقل ليست إلا تحولا في جميع احساسات الحواس، ويبين ان المعارف الأولى لإنسان لا يملك إلا حاسة الشم في التمثال المقصور على حاسة الشم لا يعرف إلا الروائح، وعلى سبيل المثال الذاكرة فهي ليست سوى أثر لاحق لإحساس سابق عليه (كامل، ب:ت، الصفحة ٣٥٨).

ولتوضيح موقف كوندياك من هذه المسألة يبين في أحد نصوصه بقوله: "كان لوك في رفضه الأفكار الفطرية هي أحد مظاهر هذا الالتزام التجريبي، وعلى هذه النقطة كما على نقاط أخرى، فإن تأثير "لوك" واضح لدرجة لا تستدعي الشرح. (Condillac, 2001, p. 15).

إذ يتبين بأن فلسفته تختلف عن فلسفة لوك في جانبين جوهريين على الأقل **الأول** هو: " أنه بينما اجتهد لوك في الكتاب الثالث من "**المقال في الفهم البشري**" في الحفاظ على نسقه العقلي الموثوق مما أسماه "خداع الكلمات"، قلَب كوندياك الأمر رأساً على عقب بجعل الكلام والألفاظ شرطاً للخطابية، ومن ثَمَّ أداةً للمعرفة وممارسةً للعقل. وهذا الجانب من كتابه رسالة في الإحساسات جليٌّ لدرجة تجعل المرء يتساءل كيف يُغفَل ولماذا، ولا شك فأن السبب يكمن في الرأي الذي لا يزال يحظى بمكانة رفيعة القائل بأن ما دُعي بـ"العقلانيين الآليين عديمي الروح في عصر الأنوار الفرنسي" قد مثّلوا نوعاً من البريق الخافت الموالي للعقلانية في القرن السابع عشر بعدائها للشعر والتعبيرية والطاقات الخلّاقة للغة، إذ كان طابع الفكر الفرنسي في تلك الحقبة عضوياً بامتياز، كما يتجلى بوضوح مثلاً في تفضيل كوندياك الواضح للاستعارات العضوية" (Condillac, 2001, p. 16).

أما الفارق الجذري **الثاني** بين لوك وكوندياك فيمكن قراءته مباشرةً خلال عروض اللغات الأولى، وتطور فن الإيماء عند القدماء، والموسيقى، وأصل الشعر، وعبقرية اللغات، وغيرها من عناوين الفصول التي تشير إلى موضوعات لا يمكن تصوّر صلتها بمشروع لوك. أما بالنسبة لكوندياك فقد كانت هي لبّ الموضوع، فأصل المعرفة عنده يبدأ بالوجدان

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

والتعبير والتعاطف والمنفعة المتبادلة للاستجابات العاطفية الناشئة في التفاعل الاجتماعي " (Condillac, 2001, p. 17).

ويمكن أن نطرح سؤال هنا وهو هل غالى كوندياك بالاتجاه الحسي فاستبعد أفكار التأمل التي افسح بها لوك مجالا للتأمل العقلي؟

إن كوندياك يستبعد هذه الأفكار جميعا ويؤسس مذهبه الحسي على الإحساس الظاهري فيرجع إليه جميع قوى العقل والإرادة باعتباره هو المصدر الوحيد للمعرفة، وبذلك يستغني عن التفكير باعتباره مصدرا اساسيا للمعرفة ولكن إذا كان كوندياك قد استغنى عن العنصر الأساسي في العملية الفكرية وهو التأمل او التفكير العقلي الخالص فكيف تسنى له ان يؤسس مذهبه في المعرفة عن طريق الاحساسات؟ فقد تصور بأن الاحساسات الظاهرية هي علة قوى النفس سواء عقلية او إرادية بحيث ان انتباه النفس إلى أي احساس منها يكون كافيا لتوليد جميع القوى النفسية (عباس،١٩٩٦، الصفحة ٣٩-٤٠).

فقد تميز كوندياك عن الفيلسوف الإنكليزي جون لوك بتوجيهه قدرا كبيرا من الإهتمام للغة، إذ استخدم الإشارات في تكوين افكارنا ومن ناحية أخرى فاقه في مجال التجريب خاصة في كتابة رسالة في الاحساسات، فإذا كان كوندياك قد اضاف إلى الاحساسات مصدرا آخر للمعرفة الإنسانية وهو نشاط الذهن في صورة تفكير او في قدرة النفس، فإنه في كتابه قد ارجعها جميعا إلى الاحساسات واظهر القوى والقدرات ذاتها كأشياء مكتسبة ناشئة من الاحساسات وهذا هو مذهب الاحساسات المتحولة (عباس، ١٩٩٦، الصفحة ٢٦-٢٧).

وعلى هذا النحو يعرف كوندياك في كتابه **رسالة في الإحساسات** مذهب الإحساس المتحول بأنه" العملية التي تتحول فيها الاحاسيس البسيطة تدريجياً إلى جميع العمليات العقلية الأخرى كالانتباه والذاكرة والمقارنة والحكم والتخيل، لان العقل لا يمتلك افكاراً فطرية، بل ان معرفته تنشأ من الإحساس وحده ويتحول إلى صوراً ذهنية اكثر تعقيداً" (Condillac, 1930, p. 15)

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

ويتبين ما تقدم بأن كل فلسفة إذا كانت مقصورة على المحسوس لا بد أن يكون مصيرها إنكار الحقائق لأن الإحساس إدراك فقط، ومالحكم عليه والشعور به متعلق بنوع آخر من القوى النفسية اي العقل والفكر، فكيف يثبت عنده وجود المحسوس والحكم عليه بأنه يقيني او حق او باطل فإن ذلك كله يرجع لأحكام العقل (محمد علي، ب: ت، الصفحة ١٣٤).

المحور الثاني: تجربة التمثال في تكوين العمليات العقلية:

يرى كوندياك أنَّ الإنسان في البداية لا يملك سوى الحواس ومن خلال الانتقال بين الخبرات الحسية تتكون لدينا مختلف العمليات العقلية، ولتوضيح ذلك قدم تجربته الشهيرة عن التمثال فيذكر في كتابه "أن التمثال يكتسب ست عادات أساسية: الانتباه، والتذكر، والمقارنة، والحكم، والتخيل، والتعرف. وأن العادات لا تبقى ما لم تُمارس باستمرار فإذا توقفت الممارسة ضعفت الذاكرة وفقدت القدرة على التمييز والتعرف على الخبرات السابقة ويمكن تقويتها من خلال تكرار الخبرات وربطها بدرجات اللذة والألم، مما يساعد على تنمية الذاكرة والقدرات العقلية الأخرى وأن التمثال بتركيزه على نوع واحد من الإحساس (الشم)، قد يطور قدرة دقيقة على التمييز بين الروائح المختلفة. ومع ذلك فإن نطاق معرفته يظل محدودًا، لأن العلاقات والأحكام التي يستطيع اكتشافها تبقى قليلة بسبب اقتصاره على حاسة واحدة فقط (Condillac, 1930, p. 23).

وبذلك يحاول كوندياك ان يبني كل العمليات العقلية التي يمكن أن نستمدها من إحساس الشم، وإننا اذا اعتبرنا بأن عملياتنا وقدراتنا مجرد احساسات شم محولة فإن مداها يكون محدودا إلى أقصى حد، ومع ذلك فإنه مع حاسة واحدة فقط تكون للذهن مثلما تكون له مع خمس حواس متحدة معا (كوبلستون، ٢٠١٠، الصفحة ٥٨).

ويضيف أيضا بقوله: "إذا افترضنا أن التمثال لا يمتلك سوى حاسة الشم، فإن معارفه لا يمكن أن تتجاوز نطاق الروائح. فهو لا يستطيع أن تكون لديه أي فكرة عن الامتداد أو الشكل، ولا عن أي شيء يقع خارج ذاته أو خارج إحساساته، تماماً كما لا يستطيع أن تكون لديه أفكار عن اللون أو الصوت أو الطعم الروائح لا تُدرَك إلا بوصفها أحوالاً للذات

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

إذا قدمنا للتمثال وردةً ليشمّها، فإننا نصفه بأنه تمثال يشمّ وردة؛ أما بالنسبة إليه هو نفسه، فليس هناك سوى رائحة الوردة ذاتها وعليه، فإن التمثال سيكون بحسب المثير الحسي الذي يؤثر في عضو الشم رائحة ورد، أو رائحة قرنفل، أو رائحة ياسمين، أو رائحة بنفسج. وبعبارة أخرى، فإن الروائح بالنسبة إليه ليست سوى تعديلات أو كيفيات تطرأ على وجوده. ولذلك لا يستطيع أن يتصور نفسه شيئاً غير هذه الإحساسات، لأنه ليس قابلاً لشيء سوى التأثر بها" (Condillac, 1930, p. 3).

ولفهم ذلك بصورة واضحة يرى كوندياك أن الكائن الذي لا يملك سوى حاسة الشم لا يمكن أن تتجاوز معرفته نطاق الإحساسات الشمية، لان الأفكار لا تتولد لديه عن طريق الامتداد أو الشكل أو العالم الخارجي، لأن الروائح ليست موضوعات مستقلة بالنسبة إليه، بل هي أحوال أو تعديلات تصيب شعوره بذاته ومن ثمّ يخلص إلى أن فكرة المادة لا يمكن أن تكون معطاة بصورة فطرية، وإنما تستوجب وجود خبرة حسية اوسع من مجرد الإحساس الواحد، مؤكداً بذلك أن أصل المعرفة يكمن في الإحساس.

فضلاً عن ذلك بين كوندياك أن التجربة على الإحساس الظاهري هو المصدر الأصيل للمعرفة ويرى بأنه كافي لتوليد جميع القوى النفسية، ولبيان ذلك يرى في كتابه رسالة في الاحساسات بأن تمثالا حيا داخل تمثال من رخام فيقول اذا كسرنا الرخام في موضع الأنف افسحنا المجال للتمثال الحي القدرة على استخدام حاسة الشم والتي تعتبر أدنى الحواس، وعند اول إحساس يوجد شيء واحد في شعور التمثال وهو رائحة وردة فيكون شعوره كله في هذه الرائحة او اي رائحة أخرى تعرض له وهذا مايسمى بالإنتباه، ولا ينقطع الإحساس بالرائحة ولكنه يبقى مع حدوث رائحة جديدة وهو الذاكرة (كرم، ب:ت، الصفحة ١٩٦).

وعندما تفقد الأشياء حضورها من إحساسات الذوق والصوت والشم واللون والضوء، لا يتبقى لنا من إدراك يمكننا تحويله إلى ما يشبه لون البرتقالة وعطرها وطعمها على سبيل المثال يُضاف إلى ذلك أنه لا نظام ولا توازن يُعين على ذلك، ولا يمكن استعادة هذه الأفكار إلا حين تكون قد أصبحت مألوفة لنا. ويعبر عن ذلك بقوله: " ينبغي أن تُستعاد أفكار الضوء والألوان بأيسر ما يكون، ومن بعدها الأصوات، أما الروائح والأذواق فلا نستعيد منها إلا تلك التي نُكنّ لها تفضيلاً خاصاً. وهكذا ثمة إدراكات كثيرة يمكننا تذكرها،

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

وإن كنا لا نستذكر سوى أسمائها. أوَلا يحدث هذا في أحيان كثيرة حتى مع أكثر الإدراكات ألفةً، لا سيما في الحوار الذي كثيراً ما نعتاد فيه الحديث عن الأشياء دون أن نتخيلها" (Condillac, 2001, p. 29)

ولكن كيف سيكون الأمر لو لم تكن هناك ذاكرة محدودة؟ يجيب كوندياك في كتابه بأنه "إذا لم يبقَ أي تذكّر للتغيرات السابقة، فإن الإنسان عند كل إحساس سيعتقد أنه يشعر به لأول مرة. وقد تبدو سنوات كاملة وكأنها تنحصر في اللحظة الحاضرة. ولو كان انتباهه دائمًا محدودًا بحالة واحدة فقط، فلن يستطيع أبدًا الجمع بين شيئين معًا، ولن يقدر على الحكم على العلاقات بينهما. وكان سيشعر بالمتعة أو الألم دون أن يمتلك أي رغبة أو خوفًا، ففي بداية الذاكرة يتبين إن الرائحة لا تُنسى تمامًا عندما تتوقف المادة ذات الرائحة عن التأثير في عضو الحس؛ لأن الانتباه يحتفظ بها، وتبقى منها صورة أقوى أو أضعف بحسب قوة الانتباه أو ضعفه. وهذا هو ما يُسمّى بالذاكرة (Condillac, 1930, p. 6).

ففي انقسام قدرة الإحساس بين الشم والذاكرة يبين كوندياك بأنه "عندما يشم تمثالنا رائحة جديدة، فإنه لا يزال يحتفظ بما كان يشعر به قبل لحظة، فتنقسم قدرته على الإحساس بين الذاكرة والشم. الأولى من هاتين القوتين تتجه إلى الإحساس الماضي، بينما الثانية تتجه إلى الإحساس الحاضر فالذاكرة مجرد نمط من الإحساس، إذن يوجد في التمثال طريقتان للإحساس، وهما تختلفان فقط في أن إحداهما مرتبطة بإحساس حاضر، والأخرى بإحساس سابق" (Condillac, 1930, p. 6).

مجلة العلوم الاساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الاساسية

ويرى بأنه لزاما علينا إعادة صياغة افكارنا بالاتصال مع العالم الخارجي، اذ يبين بأن الأنا ماهي إلا مجموع الاحساسات التي يشعر بها والتي تذكره بها الذاكرة (طرابيشي، ٢٠٠٦، الصفحة ٥٤٩).

وهكذا فإن التمثال يميز في ذاته تعاقبًا فيقول: " كلما كانت مادة ذات رائحة تؤثر في عضو الحس، تظهر رائحة أخرى في الذاكرة، لأن أثر مادة عطرية أخرى يبقى في الدماغ بعد أن يكون عضو الحس قد نقله بالفعل، ومن خلال انتقاله بين هاتين الحالتين، يشعر التمثال بأنه لم يعد كما كان. إن معرفة هذا التغير تجعله يربط الرائحة الأولى بلحظة

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

مختلفة عن تلك التي يختبر فيها الرائحة الثانية، وهذا ما يجعله يدرك الفرق بين الوجود في حالة معينة وتذكر أنه كان موجودًا في حالة أخرى (Condillac, 1930, p. 7).

وبذلك تفسر جميع قوى العقل من انتباه وذاكرة ومقارنة بالإضافة إلى القدرة على تكوين الأحكام السالبة والموجبة بالحواس الظاهرة خاصة حاسة الشم كذلك قوى الإرادة إلى جانب قوى العقل ويجعلها تصدر من الاحساسات وتتبع بالتالي من الإحساس باللذة أو الألم (عباس، ١٩٩٦، الصفحة ٤١).

وفي حديثه عن المعاناة في اللذة والألم يقول: " ان المعاناة لا يمكنها أن تجعل التمثال يرغب في الخير أكثر مما يمكن للمتعة أن تجعله يخاف من الشر الذي لا يعرفه. وبالتالي، حتى لو كان الإحساس الأول غير سار، ووصل إلى حد إيذاء عضو الإحساس والتسبب بألم شديد، فإنه لن يؤدي إلى نشوء الرغبة، إذا كان الألم عندنا دائمًا مصحوبًا بالرغبة في ألا نعاني، فلا يمكن أن يكون الأمر كذلك بالنسبة للتمثال. فالألم يثير فينا هذه الرغبة لأننا نعرف مسبقًا حالة مختلفة. إن العادة التي اكتسبناها في النظر إلى الألم باعتباره شيئًا كنا بدونه وربما نستطيع أن نكون بدونه مرة أخرى، تجعل من المستحيل علينا أن نعاني الألم دون أن نتمنى فورًا ألا نكون متألمين، وهذه الرغبة لا تنفصل عن حالة الألم. أما التمثال، الذي لا يكون في البداية واعيًا إلا بنفسه في الألم الذي يشعر به، فإنه لا يدرك أن الألم يمكن أن يزول ويصبح شيئًا آخر، أو أنه قد لا يكون هناك ألم أصلا. فهو لا يملك بعد أي فكرة عن التغير أو التعاقب أو المدة الزمنية. ولذلك فهو يوجد فقط، من دون أن يكون قادرًا على تكوين رغبات" (Condillac, 1930, p. 5).

ويذكر أيضاً أن الإنسان عندما يصبح قادرًا على ملاحظة أنه يستطيع أن يتوقف عن أن يكون على ما هو عليه لكي يصبح شيئًا آخر فيقول "كيف يمكن لحالة الألم أن تولّد الرغبة، لأنه سيقارن حالة من اللذة يتذكرها بحالة الألم التي يعانيها. وبهذه الوسيلة تصبح اللذة والألم المبدأين الأساسيين اللذين يحددان جميع عمليات روحه، ويرفعانه تدريجيًا إلى كل أنواع الإدراك التي يستطيع بلوغها. ولكي نميّز مدى التقدم الذي يمكن أن يحققه، يكفي أن نلاحظ اللذات التي يستطيع أن يرغب فيها والآلام التي يستطيع أن يخشاها" (Condillac, 1930, p. 5).

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

ويكفي هذا لإثبات أنه علينا فقط زيادة أو تقليل عدد الحواس، من أجل جعلنا نصدر أحكامًا مختلفة تمامًا عن تلك التي تبدو طبيعية لنا الآن؛ ويمكن لتمثالنا المقتصر على حاسة الشم أن يعطينا فكرة عن فئة من الكائنات ذات إدراكات محدودة للغاية كيف يعمل الفهم لدى إنسان مقتصر على حاسة الشم وكيف أن درجات اللذة المختلفة والألم هي مبدأ إدراكاته التمثال القادر على الانتباه، عند أول رائحة، تعود قدرة تمثالنا على الشعور كليًا إلى الانطباع الذي يُحدثه عضو حاسة الشم. هذا ما أسميه الانتباه من الاستمتاع ومن هذه اللحظة يبدأ في المعاناة، إما الاستمتاع أو المعاناة. لأنه إذا اقتصرت القدرة على الشعور على رائحة طيبة، فهناك متعة؛ وإذا اقتصرت على رائحة كريهة، فهناك معاناة، عاجز عن التكوين لكن تمثالنا ليس لديه فكرة بعد عن التغيرات المختلفة التي يمكن أن يمر بها (Condillac, 1930, p. 4).

ويعد كوندياك واضع نظرية التحليل والتي يصفها بأنها منشأ الأفكار وبهذه الوسيلة نفسها يسمح لنا بإنتاجها وإعادة تكوينها، لأن الاحساسات توجد في أساس الأفكار وتضاف بعضها إلى بعض وتتعقد بواسطة تداعي الاحساسات بالإضافة إلى تداعي الأفكار، والواقع فان كوندياك يذهب إلى أبعد ما ذهب إليه ديكارت وجون لوك إذ أنهما تقبلا الأفكار كما هي في العقل الإنساني، ولكن لزاما علينا أن نعيد صياغة افكارنا من خلال احتكاكها بالعالم الخارجي والتجربة (فال، ١٩٨٨، الصفحة ٤٦).

ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال نص كتابه بقوله: "إن أفكار الامتداد هي تلك التي نستعيدها بأيسر ما يكون، لأن الإحساسات التي نستمدّها منها من طبيعة لا يمكننا أن نخلو منها طالما كنا يقظين. فقد لا يتأثر حواس الذوق والشم؛ وقد لا نسمع صوتاً، ولا نرى لوناً؛ بيد أن النوم وحده هو الذي يستطيع أن يحرمنا من الإحساس باللمس. إذ من الضرورة المطلقة أن يرتكز جسدنا على شيء ما وأن تثقل أجزاؤه بعضها فوق بعض. ويُفضي ذلك إلى إدراك يجعلها تبدو متباعدة ومحدودة، مما يستلزم من ثَمَّ فكرة امتداد ما" (Condillac, 2001, p. 26).

ومع ذلك فأن اللمس على أي حال هو المسؤول بصورة أولية عن هذه الفكرة، فإذا مرر طفل يده على أجزاء جسمه فأنه سيشعر بذاته في كل أجزاء جسمه، ولكنه اذا لمس جسماً

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

غريباً فان الأنا لا تتلقى من الجسم الغريب الاستجابة التي تتلقاها من اليد، وعلى ذلك يحكم على هذه الأفكار جميعاً من العالم الخارجي، وعندما يرتبط اللمس بحواس أخرى فأن المرء يكتشف بالتدريج مختلف اعضاءه الحسية ويحكم السبب في احساسات الشم والسمع وغيرها إلى العام الخارجي (كوبلستون،٢٠١٠، الصفحة ٥٩).

ففي رأيه يبين أننا لا نعرف عناصر الأشياء او محركاتها الأولى، وانما الواجب تفسير الظواهر بظواهر أخرى وهناك أشياء لا نفهمها إلا عن طريق نتائجها لذلك يجب علينا بحسب كوندياك دراسة هذه النتائج التي تتوقف على علل لا نعرفها وعلى الميتافيزيقا التي تجعل ابحاثها متناسبة مع ضعف العقل الإنساني لذلك اطلق على مذهبه باسم مذهب الإحساس المتحول (فال، ١٩٨٨، الصفحة ٤٧).

وعلى هذا الأساس بدل ان يفسر كوندياك الأفعال بالقوى النفسية والانفعالات بالميول فإنه يجعل الميول تصدر عن الانفعالات ويجعل القوى عادات الأفعال او ما يسمى بعادات ولدها التفكير، ولما كان أفراد النوع الواحد تحس نفس الحاجة فتعمل لنفس الغاية وبنفس الأعضاء فكانت جميع قوى النفس احساسات محولة، وبهذا المنطلق فإن كوندياك لم يكن ماديا لأنه يعتبر الإحساس ظاهرة أصيلة وهو يعارض لوك معارضة صريحة في افتراضه ان مادة معينة تكون حاصلة على قوة التفكير، إلا أن كوندياك يرى أن المعرفة الحسية ترجع إلى تقارن الاحساسات اللمسية (كرم، ب:ت،الصفحة ١٩٧-١٩٨).

المحور الثالث: دور اللغة والعلامات في تكوين المعرفة:

تعد إشارة كوندياك إلى أهمية اللغة نسبة إلى جون لوك والذي استمد أفكاره منه باعتباره المنبع الأول لفلسفة كوندياك، فقد رأى الأخير ان دراسة اللغة تؤيد رد المعرفة إلى الإحساس لان اللغة هي هبة زود الله بها الإنسان، ومع ذلك فهي اختيارية لعدم وجود حيلة ضرورية من أي لفظ وما يشير إليه من أفكاره واللغة ماهي الا علامات حسية معينة ترمز إلى الأفكار الموجودة في الذهن ومن ثم تصبح الأفكار التي تشير اليها هي الدلالة الحقيقية المباشرة لها.(عباس، ١٩٩٦، الصفحة ٨٣)

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

ومن هذا المنظور فإن للتمثال المقصور على الشم القدرة على تجريد المعاني وتعميمها، لأنه يميز بين الحالات التي يمر بها وصولاً لمعنى العدد، ويعلم انه لم يستطع ان يبقي الرائحة التي هو عليها ويعود كما كان يحصل بذلك على الممكن، وعندما يدرك تعاقب الاحساسات يصل إلى معنى الزمان، ومتى لم يكن في الطبيعة ماهيات وجب الاستعاضة عنه بالتحليل لان المعاني اما بسيطة تنشأ مباشرة من التجربة الحسية ولا تحتاج إلى تحليل، او معاني مركبة تتكون من اجتماع عدة معاني بسيطة وتربطها في الذهن وتحتاج إلى التحليل، ومن هنا تبرز أهمية اللغة في فلسفة كوندياك إذ يرى أن الالفاظ ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار بل هي أداة تساعد على تكوين المعاني المجردة وتنظيمها، وعلى هذا النحو يؤكد كوندياك أن تطور المعرفة يرتبط بصورة مباشرة بتطور اللغة، وأن القدرة على التفكير العقلي تزداد كلما أصبحت اللغة اكثر دقة ووضوحاً (كرم، ب:ت، الصفحة١٩٧).

ومن خلال ذلك يميز كوندياك بين نوعين من الأفكار، الأول الأفكار الصادرة من الاحساسات بصورة مباشرة، وبين الأفكار الناشئة من التأليف بين الانطباعات الحسية، واعتبر اللغة هي الدور الحاسم والمحدد الأساسي في تكوين الأفكار، وقد تخلص كوندياك نتيجة لهذه الفكرة من الاعتراضات الموجهة من الفلاسفة الحسيين، اذ يرى وجوب افتراض عقل نشط يمكن به انتقال الأفكار من الطابع الحسي إلى الفكرة التأملية وهذا الانتقال يتم بواسطة دور اللغة. (بدوي، ١٩٨٤، الصفحة ٣١٨).

ووجد كوندياك أن الحجة التي عرضها لوك في كتابه **(مقال في الفهم البشري)** قد انحرفت سياقاتها بشكل ما و أنها لا تقدم تفسيراً كافياً لنشأة اللغة، لأن لوك تناول الأفكار في الكتاب الثاني والمعنون (بالأفكار) قبل تناول الكلمات واللغة بشكل عام في الكتاب الثالث والمعنون (بالألفاظ). ويرى أنه لو عكس هذا الترتيب لوجد أن إيمانه بالخطاب الديكارتي عن العقل قد تعارض مع اعترافه الصريح بأن الكلمات غالبًا ما تؤدي دورًا نشطًا في التفكير وعلى سبيل المثال عندما لاحظ أننا مثل الأطفال نتعلم معظم الكلمات قبل أن نتلقى الخبرات والتجارب التي توفر الأفكار المناسبة لها وأن الأفكار المعقدة للأوضاع المختلطة إما ألا توجد على الإطلاق أو أنها ستفقد استقرارها لولا الكلمات التي تربط

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

الأفكار المكونة لها تحت اسم واحد، لأنه كما قال لوك الاسم هو ما يبدو أنه يحفظ تلك الماهيات، ويمنحها ديمومتها المستمرة، وهو ممر (اقتباس) استشهد به كوندياك ضد تماسك حجة لوك وأننا قلة ما ننخرط في خطاب عقلي مجرد، بل نستخدم الكلمات بدلاً من ذلك. ومن هذا المنطلق وجه كوندياك عدة اعتراضات إلى موقف لوك وسعى في إعادة النظر فيها ونقد بعض جوانبها ومنها: (Condillac, 2001, pp. 18–19).

أولاً: أصرّ لوك على أنه لا توجد صلة طبيعية بين أصوات الكلمات ومعانيها وإن دحض هذه العقيدة الشائعة في القرن السابع عشر قد حمهرر الكلمات من أي اتهام بوجود صلة طبيعية أو أصل إلهي متمثل في تسمية "آدم" للحيوانات، مما مهد الطريق للخيار البديل الوحيد، وهو الأصل البشري.

ثانيًا: عدَّ لوك اللغة ظاهرة اجتماعية نظرًا لاستخدامها الاجتماعي واستمرار وجودها وتعديلها في التحدث. وقال إن اللغات هدفها فقط تسهيل التواصل... وليس تفسير حقائق الأشياء وطبيعتها، وإنها نشأت بناءً على الصفات المحسوسة.

ثالثًا: إن عملية الاستخدام هذه سوف تتسبب في التغيير بمرور الوقت، مما يمنح كل لغة صفة معينة وبُعدًا تاريخيًا. فقد كان لكتاب المقال لـ لوك أثر في توسيع التفكير في اللغة ليشمل القضية الأكبر المتعلقة بطبيعة التواصل بشكل عام.

وهكذا فإن المادة الأساسية للمعرفة هي اتحاد معنى لعلامة ما وبموجب هذا الإتحاد يمكن بناء حياة عقلية مركبة مع نمو خبراتنا بالعالم الخارجي لأننا موجودات ذكية قادرة على التأمل لامتلاكنا هبة اللغة (كوبلستون، ٢٠١٠، الصفحة ٥٤).

ويؤكد هذا المعنى بقوله: " انه حين اكتسبوا عادة ربط بعض الأفكار بعلامات اصطلاحية، أصبحت الأصوات الطبيعية نموذجاً لهم لصنع لغة جديدة. فنطقوا أصواتاً جديدة، وبتكرارها مرات عدة مقرونةً بإشارة تدلّ على الأشياء التي أرادوا لفت الانتباه إليها، اعتادوا على إعطاء الأسماء للأشياء. غير أن التقدم الأول لهذه اللغة كان بطيئاً للغاية. إذ كان جهاز النطق متصلباً لدرجة أنه لم يكن يستطيع نطق سوى الأصوات البسيطة بيسر. بل إن العقبات التي اعترضت نطق أصوات أخرى حالت دون أن يشكّوا في أن الصوت

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

يمكنه التنويع فيما هو أبعد من العدد الضئيل من الكلمات التي سبق أن ابتُكرت وكلما ازدادت لغة الأصوات المنطوقة ثراءً، كانت أجدر بتمرين الجهاز الصوتي في مرحلة مبكرة والحفاظ على مرونته الأولى. وعندئذٍ أصبحت بقدر ما هو ملائم كلغة الإشارة؛ وكان يُستعمل كلٌّ منهما بقدر متساوٍ من اليسر، حتى أصبح استخدام الأصوات المنطوقة يسيراً للغاية فطغى على سواه" (Condillac, 2001, p. 116).

فأن مشكلة أصل الأفكار المطابقة لمشكلة المنهج تكمن في اكتشاف تجربة أولى مؤكدة لا ريب فيها نرى عن طريق الحواس مصادر معرفتنا وعملها وهذه التجربة هي ارتباط الأفكار فيما بينها بعلامات اللغة، إلا أن كوندياك يبين أن العيب الوحيد للمعرفة الإنسانية في نظره هو أنه ليس بين العلامات والأفكار ذلك التطابق الأمثل والذي نراه على سبيل المثال في الهندسة حيث يتعين معنى كل لفظ بصورة واضحة ودقيقة فضلا عن انها ثابتة لا تتغير، ولكي نتدارك ذلك العيب علينا أن نضع أنفسنا في وضع إنسان نفرض ان الله خلقه بأعضاء نامية متطورة إلى الحد الذي يمكن معه من اللحظة الأولى ان يستخدم عقله أكمل وامثل استخدام (برهييه، ١٩٨٣، الصفحة ٩٥).

ففي مناقشته لدور اللغة والتصور العقلي يبين كوندياك أن المعاني تصبح ثابتة كونها مرتبطة مع علاقة او كلمة مثال على ذلك (عندما انظر إلى النخيل يكون لدي إحساس باللون الأخضر وعن طريق الحس ينتقل إلى معنى بسيط عن اللون الأخضر) وهذه الخبرة المعزولة يمكن بطبيعتها ان تتكرر دون حدود فهي بذلك تصبح موضوعا للتأمل ويمكن أن تدخل عن طريق الإتحاد مع معاني أخرى بواسطة ربطها بعلامة او رمز وهو كلمة أخضر (كوبلستون، ٢٠١٠، الصفحة ٥٤).

الخاتمة:

وفي ختام الحديث عن هذا الموضوع يتضح لنا بأن الفيلسوف الفرنسي إيتين بونو دو كوندياك قد احتلت فلسفته مكانة بارزة في تاريخ الفلسفة الحديثة خلال القرن الثامن عشر بصيغتها الحسية مما جعل فلسفته تمثل ابرز الاتجاهات الفكرية المؤثرة في الفكر

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

الفرنسي. وفي ضوء ماتقدم، يمكن عرض اهم النتائج التي توصل اليها البحث على النحو الآتي:

١. يتبين لنا أن كوندياك استند في تأسيس مشروعه الفلسفي على الإحساس وجعله هو المصدر الأول لجميع المعارف والعمليات الذهنية.
٢. على الرغم من تأثر كوندياك بالتجريبية الإنكليزية ولا سيما جون لوك، لكن رأينا انه تجاوزه في بناء نظريته في المعرفة وصولاً إلى مذهب الاحساسات المتحولة.
٣. أشاد كوندياك بتجربة التمثال في تحليل وكيفية نشأة العمليات العقلية كالإنتباه والذاكرة والمقارنة والحكم عليها وارجاعها إلى الخبرة الحسية، فضلاً عن تفسيره العقل وبيان عمله من خلالها تدريجياً وانه لا يعمل بمعزل عن الحواس.
٤. يتبين لنا ان اللذة والألم هما الدافع الأساسي لتطور العملية المعرفية وخاصة النفس، اذ يكمن دورها في فلسفته بوصفها المحور الرئيس في مذهبه الحسي.
٥. أشار كوندياك إلى فهم واهمية معنى اللغة والعلامات في تطوير النشاط الذهني وتنظيم تناسق الأفكار مما جعل فلسفته محاولة في تفسير المعرفة الإنسانية تفسيراً حسياً وربطها باللغة.

قائمة المصادر والمراجع:

١. بدوي،عبد الرحمن .(١٩٨٤)، الموسوعة الفلسفية، ج٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
٢. كوبلستون، فردريك .(٢٠١٠)، تاريخ الفلسفة، مج٦، تر: محمود سيد احمد، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
٣. برهييه، أميل .(١٩٨٣)، تاريخ الفلسفة ،تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
٤. فال، جان .(١٩٨٨)، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، تر: الأب مارون خوري، منشورات عويدات، ط١، بيروت.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

٥. طرابيشي، جورج .(٢٠٠٦)، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٣، بيروت.
٦. كامل، فؤاد .(ب:ت)، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم للطبع والنشر، بيروت.
٧. عباس، راوية عبد المنعم .(١٩٩٦)، المذهب الحسي عند كوندياك، دار النهضة العربية، بيروت.
٨. كرم، يوسف .(ب،ت)، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة.
٩. محمد علي، عصام الدين .(ب:ت)، تاريخ المذاهب الفلسفية، منشأة المعارف، الأسكندرية.
١٠. صليبا، جميل .(١٩٩٤)، المعجم الفلسفي، ج١، مكتبة المدرسة للطباعة والنشر، بيروت.
11. Condillac, É. B. de. (1930). Condillac's treatise on the sensations (G. Carr, Trans.). London: The Favil Press.
12. Condillac, É. B. de. (2001)., Essay on the Origin of Human Knowledge, Translated And Edited By Hans Aarsleff, Cambridge University Press.

References:

1- Badawi, Abd al-Rahman. (1984). The Philosophical Encyclopedia, Vol. 2. Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut.
2- Copleston, Frederick. (2010). A History of Philosophy, Vol. 6. Trans. Mahmoud Sayed Ahmed. 1st ed. National Center for Translation, Cairo.
3- Bréhier, Émile. (1983). A History of Philosophy. Trans. George Tarabishi. Dar al-Tali'a for Printing and Publishing, Beirut.
4-Val, Jean. (1988). French Philosophy from Descartes to Sartre. Trans. Father Maroun Khoury. Oueidat Publications. 1st ed., Beirut.
5- Tarabishi, George. (2006). Dictionary of Philosophers. Dar al-Tali'a for Printing and Publishing. 3rd ed., Beirut.
6- Kamel, Fouad. (n.d.). The Concise Philosophical Encyclopedia. Dar al-Qalam for Printing and Publishing, Beirut.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد السادس والأربعون
٢٠٢٦م/١٤٤٨هـ

7- Abbas, Rawya Abdel Moneim. (1996). Condillac's Sensationalism. Dar Al-Nahda Al-Arabiya, Beirut.
8- Karam, Youssef. (n.d.). A History of Modern Philosophy. Dar Al-Maaref, Cairo.
9- Muhammad Ali, Essam El-Din. (n.d.). A History of Philosophical Schools. Manshaat Al-Maaref, Alexandria.
10. Saliba, Jamil. (1994). The Philosophical Dictionary, Vol. 1. Al-Madrasa Library for Printing and Publishing, Beirut.
11-Condillac, É. B. de. (1930). Condillac's treatise on the sensations (G. Carr, Trans.). London: The Favil Press.
12-Etienne Bonnot De Condillac, Essay on the Origin of Human Knowledge, Translated And Edited By Hans Aarsleff, Cambridge University Press 2001.

مجلة العلوم الاساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الاساسية